الفصل الرابع

الهجاء السياسى

الوراثة فى الخلافة — حقّ آل البيت — تظلم الشيعة — الشكوى من المستعمرين

كانت القبيلة مظهراً من مظاهر الوطن عند العربى ، يعيش فى حماها ويدفع عن حياضها ، ويذود عن حدودها . وكان هذا الوطن الصّغير يحملُ اسم القبيلة ، فى فخر وزهو ، ويتحالف مع قبيلة أخرى فيتكوّن من مجموعة القبائل جبهة أو وطن ، وكان المفهوم السياسى ضيقاً جدّاً يقف عند الانتصار أو الانكسار ، لأن الغارات كانت تتعاقب لضرورة العيش والحياة وضيق السبل والوسائط وقلة المال والغذاء والمرعى .

وكان رؤساء القبيلة هم زعماء السياسة فيها يعقدون المعاهدات ويعلنون الحروب ، ويجتمعون إذا ادلهمّ الخطبُ ، ويهبون جميعاً للقتال ، وكانَ الكاهنُ موضعَ الاستشارة والعون ينزعون إليه ليسألوه رأيه فى كثير مما يغمض عليهم . وكان الشاعر لسان هذه الدويلة وصحيفتها السيارة وقلمها البليغ تحتفل لولادة الشاعرية عنده ، وتفرح لقوّته ، وتفخر به كذلك ، لأنه درع من الدروع وحصن من الحصون يقاتل ويحارب بلسانه كما يحارب القوم بسيوفهم ورماحهم . وكانت قوة السياسة عند الشاعر خلال الأزمات تقع فى شدة حفظه للأنساب والأحساب ، لأنه يصرّف لسانه فيها فيتناول عدوّه ، وينزل به أشد النكبات كلما توسع فى هذه المعلومات وقلب قوله فيها . لذلك كان الشاعر لسان السياسة فى القبيلة ، ثم أصبح لسان السياسة فى الدولة . ولم يقع لنا من شعر الهجاء السياسى كبير أمر خلال الجاهلية فى بلاد الشام ، إلا ما تسرب إلينا من هجاء المتلمس فى المناذرة وما كان من الأعشى ضدّ الفرس وكسرى ، ولكنه حماسة وفخر قد مزجا بالهجاء .